ابراهيم بن أدهم

مصباح غلونجي

هو أبو اسحاق ابراهيم بن أدهم بن منصور ابن يزيد بن جابر – وقيل : ابن عامر – العجلي التميمي(١) – فهو عربي النجار ، كريم الحسب، شريف(٢) .

☐ ميلاده ومسقط رأسه :

لم يحدد الرواة سنة ميلاده . واختلفوا في مسقط رأسه . فمن قائل : انه ولد بمدينة بلخ(٣) . ومن قائل انه ولد بمكة المكرمة حين كان والداه يحجان ، وأن أمه جعلت تطوف به في* المسجد الحرام على الناس وتقول لهم : أدعوا لابني أن يجعله الله رجلاً صالحاً . فكان كما أرادت(٤) .

☐ حال ابيه :

كذلك اختلفوا في حال ابيه . فذكر بعضهم انه كان شريفاً وثرياً من أثرياء كورة بلخ(٥) . وروى بعضهم انه كان أميراً عربياً على خراسان، وانه ورث الإمارة عن ابيه . وقال آخرون انه كان رجلا فقيراً متزهداً ورعاً ، وإن الإمارة قد سعت اليه دونما رغبة منه أو اختيار ؛ ونسجوا حول ذلك أسطورة لا تخلو من طرافة . قالوا : مرّ أدهم ذات يوم ببساتين بخارى وتوضأ من بعض الأنهار التي تتخللها ، فاذا بتفاحة يحملها ماء النهر . فقال : هذه لا خطر لها ، فأكلها ، ثم وقع في خاطره من ذلك وسواس ، فعزم على أن يستحل من صاحب البستان . فقرع بابه ، فخرجت اليه امراة ، فقال لها : ادعي لي صاحب البستان . فقالت : انه لامرأة – فقال استأذني لي عليها ، ففعلت . فأخبر المراة بخبر التفاحة. فقالت له ان هذا البستان نصفه لي ونصفه للسلطان ، والسلطان يومئذ ببلخ ، وهي مسيرة عشرة من بخارى، واحلته المراة من نصفها؛ وذهب الى بلخ ، واعترض السلطان في موكبه ، فأخبره الخبر واستحله ؛ فأمر السلطان أن يعود اليه من الغد . وكان له بنت بارعة الجمال ، قد خطبها أبناء الملوك فتمنعت، وحببت اليها العبادة والرجال الصالحون ، وهي تحب أن تتزوج من ورع زاهد في الدنيا . فلما عاد السلطان الى قصره أخبر ابنته بخبر أدهم ... فرغبت في تزوجه . فلما أتاه من الغد قال له : لا أحلك الا أن تتزوج ابنتي . فانقاد لذلك بعد استعصاء



وتمنع ، فتزوج منها . ولما دخل عليها عمد الى ناحية من البيت ، واقبل على صلاته حتى أصبح – ولم يزل كذلك سبع ليـال . ثم تزوجها وقام فاغتسل وصلى ومات أثناء صلاته ، فحملت منه ابراهيم ، ولم يكن لجـده ولد ، فأسند الملك اليه . وكان مـن تخليه عن الملك ما اشتهر(٦) .

ومهما يكن من أمر هـذه الروايات ، فانها تجمع على ثراء ابيـه ، وثرائه هو من بعـده .

□ أسباب تزهـد ابراهيـم :

وكـذلك تبـاينت الروايـات في أسـباب تزهده(٧) . ومن أشهر هذه الروايات واكثرها وروداً في المظان والكتب التي ترجمت لابراهيم هي : انه خرج مع بعض أصحابه الى الصيد ، وبينما كان يكر ويفر جاداً إثر أرنب يروم رميه، إذ بهاتف من وراء الغيب يناديه باسمه قائلا : « يا ابراهيم ! (أفحسبتم انما خلقناكم عبثاً ، وانكم إلينا لا ترجعون) . يا ابراهيم ! الهـذا خلقت أم بهـذا أمرت ؟ فلم يبال به في باديء الأمر . فعاوده الثانية فالثالثة . فشد لجام فرسه ووقف حائراً من شدة الجزع . ثم هتف به الرابعة قائلا : « والله ، يا ابراهيم ، ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت » . فآمن آنئذ بانه صوت الحق ونذير من رب العالمين ، واطمأنت نفسه بعـد اضطراب ، وانست بعد وحشة ، فرجع الى أهله ، وخلّى عن فرسه ، ثم جاء الى راعٍ لأبيه فالقى اليـه بما يلبسه مـن حلل الإمارة وحليها ، واخذ منه أطماره ، ولف جسمه بها وهـام على وجهـه .

□ اسـفاره :

سـاح في الأمصـار الاسلامية ، فجـاب خراسان ، ثم يمم شطر العراق واقـام بعض الوقت في البصرة والكوفة، فلم يصفُ له العيش فيهما فغادرهما وقصد الى الحجـاز فزار قبر الرسول الكريم في المدينـة ، وعرج على مكـة المكرمة وصحب فيها سفياناً الثوري والفضيل ابن عياض، وقيل انه قدم مصر ومر بالاسكندرية ثم صار الى بلاد الشام ؛ ويبدو أنه كان شغوفاً بها ، حسن الظن بأهلها وبصدق دينهم وحسن معاملتهم ، وكان يردد دائماً قوله : « ما تهنيت بالعيش الا في بلا دالشام ، أفِرُّ بديني من شاهق الى شاهق ، فمـن رآني يقول مسـكين ، ومن رآني يقول حمال وموسوس »(٨) . وقـد قضى مدة طويلة مـن حياته فيها متنقلاً بين ربوعها . سئل مرة ومذ كم نزلت الشام ؟ فأجاب : منـذ أربع وعشرين سنة . وما نزلت فيها الا لأشبع خبز الحلال »(٩) . طوّف في سهولها وجبالهـا ومدنها وقراها : زار بيت المقدس ، وقيسارية ، وغزة ، وطبرية ، والرملة ، وعكا ، وعسقلان ، والنواقير (الناقورة) وأقام بعض الوقت في صور وصيـدا وبـيروت والتقى ، في الأخيرة ، الإمام الأوزاعي وصحبه ، وزار الأردن وقضى مدة من الزمن في دمشـق وحمص والرستن . ورابط في إنطاكية ومرعش والمصيصة وطرسوس وسوقين، وفي بعض العواصم والثغور الأخرى ، ويبدو انه القىعصا التسيار في الساحل السوري ولا سيما في جبلة قبل أن يلقى وجه ربه الكريم .

□ تاريـخ وفـاتـه :

اختلفت الروايات في تاريخ وفاته . روي انه توفي سنة ١٤٤ هـ (٧٦١ م)(١٠) ، وقيل سنة ١٦١ هـ (٧٧٧ م)(١١) . وقيـل سنة ١٦٢ هـ (٧٧٨ م)(١٢) وسـنة ١٦٣ هـ (٧٧٩ م)(١٣) . ولكن الذي عليه معظم المؤرخين الذين ترجموا له أن وفاته كانت سنة ١٦٢ هـ . وهو ما نرجحه نحـن ايضـاً .

□ مكـان وفـاتـه :

وكذلك اختلفت الروايات في مكان وفاته . روي انه توفي في بلدة سوفنن(١٤) (حصن من بلاد الروم) . وقيـل بالجزيرة ، دون ذكر اسمها ،

وحمل الى صور ودفن فيها(١٥) . وله قبر هناك في موضع يقال له مدفله(١٦) . وذكر أنه مات بداء البطن في جزيرة من جزائر الروم أثناء غزوة ضد البيزنطيين ، وانه حمل الى الساحل ودفن فيه(١٧) . وكذلك ذكر ابن أخته الشاعر محمد ابن كناسه(١٨) في رثائه الذي يقول فيه :

رأيتك ما يكفيك ما دونه الغنى
وقد كان يكفي دون ذاك ابن أدهما
وكان يرى الدنيا قليلاً كثيرها
وكان لأمر الله فيها معظما
أمات الهوى حتى تجنبه الهوى
كما اجتنب الجاني الدم الطالب الدما
وللحلم سلطان على الجهل عنده
فما يستطيع الجهل أن يترمزما
وأكثر ما تلقاه في القوم صامتاً
وإن قال بذ القائلين وأحكما
يرى مستكناً خاضعاً متواضعاً
وليثاً اذا لاقى الكتيبة ضيغما
على الجدث الغربي من آل وائل
سلام وبر ما ابر واكرما(١٩)

□ موضع دفنه :

وان كنا لا نستطيع ان نقطع براي في مكان وفاته لاضطراب الروايات في شأنه ، فاننا لا نجد من الأسباب ما يدعو الى الشك في ان جثمانه قد نقل الى جبلة ودفن فيها ، بل بالعكس فان هناك كثيراً من الأدلة والحجج التي لا تؤيد ذلك منها :

١ ــ قِدَمُ مقامه وجامعه فيها(٢٠) .

٢ ــ أوقافه الواسعة من قرى وضياع واراضٍ شاسعة ، ودور وحوانيت وغيرها من عقارات ، وتزايد هذه الأوقاف مع الزمن ، وتنامي الاهتمام بها ، حتى بلغ من هذا الاهتمام أن كان لها زمن المماليك ادارة واسعة خاصة بها تسمى (مشيخة المقام الابراهيمي) ، ويتولى رئاستها أفاضل الشيوخ ، ويصدر بتعيينهم توقيع من المجلس العالي(٢١) . وكذلك كان يعين لها متولٍ في عهد الأتراك يشرف عليها ويقوم بادارة شؤونها . ونعتقد أنه مما ينافي المنطق أن يخصص الواقفون هذه الأملاك الكثيرة باسمه وبمدينة جبلة ومنطقتها وسواهما ، لو لم يصح أنه مدفون فيها .

٣ ــ شهرة زاويته في التاريخ ، تلك الزاوية التي كان الناس على اختلاف طبقاتهم يأتون اليها من كل حدب وصوب من البلاد الشامية كل سنة احياء لذكراه وتبركاً بمقامه ، والتي كان يبذل فيها الطعام للصادر والوارد من الفقراء والمساكين وأبناء السبيل(٢٢) .

٤ ــ لا نعرف أن لابراهيم قبراً وجامعاً وأوقافاً في مدينة أخرى غير مدينة جبلة . أما قول بعضهم أنه مدفون في صور(٢٣) وغيرها فهو قول لا يقوم أي دليل تاريخي أو مادي على تأييده .

٥ ــ ذكر بعض المؤرخين والرحالة العرب الذين زاروا جبلة أن قبره قائم فيها ، دونما تحرز أو ارتياب في القول. قال ابن شداد المتوفى سنة ٦٨١ هـ (١٢٨٢ م) : « وبجبلة بظاهرها قبر ابراهيم بن أدهم ... »(٢٤) . وكذلك قال أبو الفداء المتوفى سنة ٧٣٢ هـ (١٣٣١ م)(٢٥) وابن بطوطة المتوفى سنة ٧٧٩ هـ (١٣٧٧ م)(٢٦) ، وغرس الدين خليل الظاهري المتوفى سنة٨٧٢هـ (١٤٦٧ م)(٢٧) .



شخصيته

تعمق ابراهيم في دراسة القرآن الكريم ،وغاص في أعماق الدين الحنيف فاستخرج جواهر حقائقه الأخروية والدنيوية ومثله الانسانية السامية . وفقه الحديث الشريف ورواه ، وتتبع سيرة الرسول الكريم ﷺ وسلوك أصحابه فنهج نهجهم ، وثقف ثقافة عربية واسعة فكان بليغاً فصيحاً ، ورجع الى أصالته العربية فعمل بمناقبها ومآثرها الخلقية ، فكان رجلا فذاً بين الرجال ، كان قوي الايمان بالله ، ومحدثاً ،وعالماً عاملاً ، ومعلماً مؤدباً ، ومجاهداً بطلا ، ومتزهداً ورعاً .

☐ ابراهيم المؤمن :

كان مؤمناً قولاً وعملا. قال صاحبه سفيان الثوري، حينما سئل عنه : « إن ابراهيم بن أدهم يشبه ابراهيم خليل الرحمن ، ولو كان في صحابة رسول الله ﷺ لكان رجلاً فاضلاً له سرائر »(٢٨) . وحسبنا دليلاً على قوة ايمانه وصدق يقينه هذه الشهادة يدلي بها سفيان الثوري وهو من هو من العلم والفضل والتقى.هذا الى ما سنأتي على ذكره من ورع ابراهيم وتقواه ، ومن سمو أخلاقه مما هو من صميم الايمان .

☐ ابراهيم المحدث :

كان محدثاً ثقة وراوية صدوقاً مأموناً(٢٩) . وبلغ في علم الحديث منزلة رفيعة بين أصحابه حتى ان سفيان الثوري ، على غزارة علمه وعلو كعبه في الحديث ، كان يتحرز في حديثه بحضرته(٣٠) . وثقه النسائي والدارقطني ، وخرج له البخاري في الأدب ، والترمذي(٣١) . روى عن جماعة من التابعين وتابعي التابعين أحاديث متعددة ، منهم يزيد الرقاشي ، وعمرو بن عبدالله السبيعي ، ويحيى بن سعد الأنصاري ، ومالك بن دينار — وروى عنه جماعة من المحدثين منهم شقيق البلخي ،واسحاق الفزاري ، وبقية بن الوليد ، وابراهيم ابن بشار وغيرهم(٣٢) بيد انه لم ينصرف الى رواية الحديث كغيره من أصحابه مثل سفيان الثوري ، وأبي حنيفة والأوزاعي ، بل انشغل تورعاً عن الرواية « بالشكر على النعم ، والاستغفار للذنوب ، والاستعداد للموت »(٣٣). وقال : « اني لا أدعه رغبة عنه ، ولا زهادة فيه ، ولكني سمعت منه شيئاً فأنا اريد العمل به »(٣٤) .

☐ ابراهيم العالم العامل :

كان عالماً جليلا مهيباً « اذا حضر مجلساً فكأنما على رؤوسهم الطير »(٣٥) تقديراً لعلمه وفضله ، وكان « اذا قال بزَّ القائلين »(٣٦) ؟. ولكنه كان ، على سعة علمه وغزارة معرفته ، يؤثر ان يعمل بعلمه بصمت وتواضع ، على ان يتصدر مجالس الدرس وحلقات الوعظ والارشاد محققاً قوله : « اطلبوا العلم للعمل ، فان أكثر الناس قد غلطوا حتى صار علمهم كالجبال وعملهم كالذر »(٣٧) ، وقوله : « ما صدق الله عبد أحب الشهرة بعلم أو عمل أو كرم »(٣٨) .



□ **ابراهيم المؤدب :**

كان معلماً ومؤدباً ، ورائداً اجتماعياً فـذاً بدأ بنفسه فطبّق عليها الأفكار والمبادىء التي اعتنقها فغدا قدوة صالحة للخاصة والعامة من ابناء عصره، ومن خلفهم من الأجيال ، كان « همه هدى العلماء وآدابهم »(٣٩) كما كان يقـول . وكان أصحابه يجلسون اليه ليأخذوا عنه الأدب والأخلاق. قال أبو اسحق الفزاري : « كنت أنا ومخلد نأتي ابراهيم فنتعلم من آدابه وأخلاقه »(٤٠) . ضرب أمثالا رائعـة في الأدب ومكارم الأخلاق فكـان :

أميناً صادقاً . روي « أنه كان ينظر كرماً في كورة غزة ، فجاء صاحب الكرم ومعه أصحابه فقال له : ائتنا بعنب نأكله ، فأتاه بعنب فاذا هو حامض . فقال له صاحب الكرم : أمن هذا تأكل؟ قال ابراهيم: ما آكل من هذا ولا من غيره . قال: لِمَ ؟ قال لأنك لم تبـح لي شيئاً منـه . قال : فائتني برمان ، فأتاه برمان ، فاذا هو حامض . فقال : أمن هذا تأكل ؟ قال : لا آكل من هذا ولا من غيره ، ولكن رأيته أحمر حسناً فظننت أنـه حلو ، فقال : لو كنت ابراهيم بن أدهم ما عدا . قال : فلما علم أنهـم عرفوه هرب منهـم وترك كـراه »(٤١) .

وكان سخياً جواداً مؤثراً على نفسه : قال مضاء بن عيسى : « ما فـاق ابراهيم بن أدهم الا بالصدق والسخاء »(٤٢) . وقال الأوزاعي : « ليس بين هؤلاء الفقراء أفضل من ابراهيم بن ادهم ، فانه أسخى القوم »(٤٣) . وقـد زخرت الكتب التي ترجمت له بكثير مـن الحكايات التي تشهد له بالسخاء نذكر بعضها :

« قال سهل بن ابراهيم : صحبت ابراهيم بن أدهم في سفر فأنفـق علي نفقته كلهـا . قال : فاشتهيت عليه شهوة ، فذهب فأخـذ حمـاره وباعـه ، واشترى شهوتي ، فجاء بها . فقلت : يا ابراهيم فأين الحمـار ؟ قال : يا أخي بعناه . قال : قلت يا أخي على أي شيء نركب ؟ قال : على عنـقي . قـال فحملني على عنقـه ثـلاث منازل »(٤٤) .

« وقال بقية بن الوليد: قدّم الي شيء من طرائف البحر فأهديته الى ابراهيم بن أدهم ثم ندمت بعـد ذلك . فقيل له : لِمَ ندمت ؟ قال :لأنه بعث الي بكساء كـان يلبسـه في الشـتاء ، وبخف كان يلبسه في الغزو »(٤٥) . وروي انه كان يشتري بكرائـه البيض والزبـدة والشـواء والجوذبان والخبيص . فيطعمه اصـحابه وهو صائم . فاذا أفطر أكـل رديء الطعـام وحرم نفسه المطعم الطيب »(٤٦) وكان يعتبر ما ينفق على الاخوان من صميم الدين(٤٧) .

وكان رحيماً بالنـاس ، ولا سيما الفقراء والضعفاء والمساكين مواسياً لهم . وداعيـاً الى مساعدتهم . كان يقـول « المواساة مـن اخلاق المؤمنين »(٤٨) . ويقول : « ذهب السخاء والكرم والجود والمواساة . فمن لم يواس الناس بماله وطعامه وشـرابه ، فليواسـهم ببسط الوجـه والخلق الحسن »(٤٩) . حكى أحمد بن الفضـل العكي قال : « سمعت أبي يقول : مرَّ ابراهيم بن أدهم بقيسارية ، وقد تعجل ديناراً من الكرم ، فسمع صوت امراة تصيح . فقال : ما لهذه ؟ قالوا: تلد. قال: أي شيء يعمل للمراة ؟ قالوا: يشترى لها طحين وزيت ولحم وعسل . فصرف ديناره واشترى زنبيلاً وملأه طحيناً ، واشترى زيتاً وسمناً وعسلاً ولحماً ، وحمله على رقبتـه الى الباب ، وقال : خذوا ، فنظر فاذا هم افقر بيت في قيسارية واعبدهم »(٥٠) . ولعـل هذه القصة تذكرنا بقصة الخليفة عمر بن الخطاب ،رضي الله عنه ، حين حمل على كاهله الطحـين



والسمن للعجوز ولصبيتها الصغار الجائعين . وروي انه كان اذا حصد مع حصادين ضعفاء، سبقهم في أمانة(٥١) واشار اليهم أن يدعوا الحصاد ويجلسوا ليرتاحوا، وحصد هو ما تبقى من أماناتهم(٥٢) .

وكان متواضعاً مهذباً ذا قلب كبير . سئل الأوزاعي : « أيهما أحب اليك ابراهيم بن أدهم أو سليمان الخواص ؟ قال: ابراهيم أحب الي لأنه كان يخالط الناس وينبسط اليهم »(٥٣) . « وكان اذا جلس على سفرة بها طعام طيب تخلى عنه لأصحابه ، وأكل الخبز والزيتون ، وكان آخر من يرفع يديه عن الطعام تأدباً(٥٤) . ومع انه عزف عن الدنيا وما فيها ، فلم يكن له أن يحمل قلبه على سلوان وطنه ، بل ظل وفياً له نزاعاً اليه . فكان يردد دائماً قوله : « ما قاسيت ، فيما تركت ، شيئاً أشد علي من مفارقة الوطن »(٥٥) .

☐ ابراهيم المجاهد البطل :

كان فارساً شجاعاً ومقاتلاً باسلاً . باع نفسه لله ولأمته فلم يبال على أي جنب كان مصرعه . رابط في العواصم والثغور ، وخاض المعارك ضد البيزنطيين متخذاً شعاره قول الله تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله ، واعلموا أن الله سميع عليم »(٥٦) وقوله ، « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً ، بل أحياءٌ عند ربهم يرزقون »(٥٧) . وشارك في غزوات كثيرة منها غزاة عباس الأنطاكي ، وغزاة محكاف(٥٨) . وما فتىء الجهاد ينازع نفسه ويملأ شغاف قلبه، وهو يعاني سكرات الموت . قال لأصحابه عشية موته ، وكانوا في عرض البحر يجاهدون ويقاتلون البيزنطيين : أوتروا لي قوسي ، فأوتروه ، فقبض عليه ، فمات وهو قابض عليه يريد أن يرمي العدو به(٥٩) . ولا عجب من ابراهيم يقضي في ساحة الجهاد في سبيل الله وأمته وهو القائل : « من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل »(٦٠) .

☐ ابراهيم المتزهد :

كان صادقاً في زهده . راض نفسه على الصبر ، وجاهدها وغالبها ، فقهرها وكبح جماح شهواتها وأهوائها . وليس قهر النفس والسيطرة عليها بالأمر الميسور الا لمن أوتوا قوة ارادة خارقة ؛ قد عبر ابراهيم عن ذلك بقوله: « ما قاسيت ، في الدنيا ، شيئاً أشد علي من نفسي ، مرة علي ، ومرة لي . وأما أهوائي فقد استعنت بالله عليها ، واستكفيته سوء مغالبتها فكفاني . والله ما آسى على ما أقبل من الدنيا ولا ما أدبر منها »(٦١) .

وأي شيء أدل على قهر النفس والسيطرة على نزعاتها ونزغاتها ، من أن ينصرف عن الأهل والولد ، ويتخلى عن الدنيا وزينتها ، شاب مثل ابراهيم . ينعم بالسراوة والجاه العريض ، ويتقلب في أعطاف الترف ، وأحضان الرخاء وخفض العيش رغبة منه واختياراً ، وتفضلا واقتداراً ــ وشتان بينه وبين بعض مدعي الزهد والورع ممن طمحوا بأبصارهم الى الحياة الغضة الناعمة فكبا بهم الحظ ، وادبرت عنهم الدنيا فلووا عنها كرهاً لا طوعاً وعجزاً ولا رغبة ، وعاشوا عالة على المجتمع .

عاش ابراهيم ، كما اراد ان يعيش ، فقيراً معدماً محروما . كان يرتدي فرواً ليس تحته قميص ــ وكان يلبس مرقّعةً تزن ستين رطلا ؛ وكان يلبس ، في الصيف شقتين بأربعة



دراهم ، يتزر بواحدة ، ويرتدي بأخرى — ولم يك يعتمر عمامة ، أو ينتعل خفين(٦٢) — وكان اذا تّجرد للجهاد ، يأبى أن يركب دابة ،وسار الى حلبة القتال ماشيا على قدميه حافيا؛ وربما سار ثلاثين ميلا او أكثر(٦٣) .

أما الطعام فكان يقنع منه بالبلغة وبمايسد الريق — وكان يربأ بنفسه أن يأكل الا من كد يمينه وعرق جبينه — لذلك أبى « أن يأكل بعلمه او بدينه »(٦٤) . وصد عن قبول الصدقة، واستنكر المسألة ، ومقت التواكل . كان يقول:« المسألة مسألتان : مسألة على ابواب الناس ، ومسألة يقول الرجل فيها ألزم المسجد واصوم واعبد الله ، فمن جاءني بشيء قبلته . فهذه شر المسألتين »(٦٥) . وكان يرفض أي عون اومساعدة من أصحابه واخوانه. « رآه الأوزاعي ببيروت ، وعلى عنقه حزمة حطب ، فقال له : يا ابراهيم ايش هذا !؟ اخوانك يكفونك . فقال له : دعني من هذا يا أبا عمرو — فانه بلغني أنه من وقف بذلة في طلب الرزق الحلال وجبت له الجنة »(٦٦) . ولم يكن يلجأ اليهم الا في حال واحدة عبر عنها بقوله : « والله ما كانت لي مؤونة قط على أصحابي ، ولا على غيرهم الا في شيء واحد وهو أني ما كنت أحسن أكري نفسي في الحصادين فيحتاجون الى ان يكروني وياخذوا لي الأجرة ، فهذه كانت مؤونتي عليهم »(٦٧) . و « كان اذا سئل كيف انت ؟ قال : بخير ما لم يحمل مؤونتي غيري »(٦٨) . حتى انه جعل العمل والاستغناء عن الناس في مرتبة شعائر الدين فقال : « ان الصائم المصلي الحاج الغازي من أغنى نفسه عن الناس »(٦٩) .

وكان يتورع عن قبول الهدية ، ويأبى أن يأخذ سهماً أو نفلا مما يصيب المجاهدين في الغزو ، وأن يأكل شيئاً من متاع الروم(٧٠) ،لا تأثماً ، وهذا حلال ، ولكن ابتعاداً عن الشبهات ، ونبذاً للتواكل . وكان دؤوباً على العمل ، شديد الصبر على مكارهه مخلصاً له : كان يحصد الزرع في النهار والليل أحياناً ؛ فان لم يجد حصاداً طاف بين الدور فنادى : من يريد يطحن ؟ فكانت المرأة او الشيخ يخرجان اليه بحبهما ، فينصب الرحى بين رجليه فلا ينام حتى يطحن ما يقدم اليه منه — واذا لم يجد طحناً اجر نفسه في حفظ البساتين والكروم، أو عمل في كسر الحطب أو رعى الأنعام(٧١) .واذا ما ضاقت به سبل الرزق الحلال طوى ثلاثاً وأكل في الرابع(٧٢) مجتزئاً باليسير من الخرنوب او عروق الشجر او ثمار البلوط؛ وربما استف الرمل او اكل الطين(٧٣) حتى اصبح هزيلاً نحيلا « كأنه ليس فيه روح ، ولو نفخته الريح لوقع »(٧٤) .

مجد ابراهيم العمل في سبيل الكسب المشروع والرزق الحلال ، وقد بلغ من تمجيده له أن اعتبره كالعبادة . كان يقول : « أصِبْ مطعمك ولا عليك أن تقوم الليل وتصوم النهار »(٧٥) .

وروى بعض أصحابه انهم قالوا له وهم يعملون معاً في شهر رمضان خارج المدينة : « يا أبا اسحاق لو دخلت بنا المدينة فتصوم العشر الأواخر فيها لعلنا ندرك ليلة القدر ؛ فقال : أقيموا ها هنا وأجيدوا العمل ، ولكم في كل ليلة ليلة قدر »(٧٦) .

وهكذا ضرب ابراهيم مثلا رائعاً من امثاله الاجتماعية للمتزهدين وللناس اجمعين ، بالسعي الحثيث والعمل الدائب لكسب معاشهم وبلوغ رزقهم حلالاً طيباً، وبنبذ نقيصة الانطواء



على النفس ، وبدعة الرهبنة ، ومذلة التواكل فأهاب بالفقير المعافى أن يجد ويجتهد في طلب رزقه كيلا يكون عيالاً على غيره وكي يحفظ ماءوجهه . ودعا الغني القادر ألا يمد يده الا الى الفقير العاجز عن العمل ليدرأ عنه ذل المسألة ـ وكذلك يستيقظ وجدان المجتمع ويستقر ، وتتوافر للانسان عزته وكرامته .

☐ ابراهيم شيخ الصوفية :

لو أمعنا النظر فيما سقناه من سيرة ابراهيم وسلوكه ، لوضح لنا أنه كان صاحب مبدأ في التصوف يرمي الى تصفية النفس من أدرانها وأكدارها ، وتنقية الروح من شوائب الجسد والسمو بها الى مرتبة رفيعة من التأمل والتفكير في الله والفناء فيه والخلوص اليه لذاته ، لا رغبة في جنته ولا رهبة من ناره وانما وجداً ومحبة له ، وتطلعاً الى الوصول اليه ، وتوقاً الى لقاء وجهه الكريم ، وقد عبر عن ذلك أيضاً ببعض أقواله . قال كل من ابراهيم بن بشار ومحمد بن بحر: « سمعت ابراهيم بن أدهم يقول : « اللهم انك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة فما دونها إذا أنت آنستني بمذاكرتك ، ورزقتني حبك ، وسهلت علي طاعتك ، وفرغتني للتفكير في عظمتك ، فأعط الجنة لمن شئت »(٧٧) . وقال : « ان أحببت أن تكون ولياً فلا ترغب في شيء من الدارين ، وفرغ نفسك لله واقبل عليه يقبل عليك »(٧٨) . وقال أبو زيد الجذامي: قال لي ابراهيم بن أدهم: يا أبا زيد ما ترى غاية العابدين من الله غداً في انفسهم ؟ قال : قلت الذي اظن سكنى الجنة ـ قال ابراهيم: لقد ظننت ظناً ، والله اني لا أدري (أو لأرى) أكبر الأمر عندهم أن لا يعرض بوجهه الكريم عنهم »(٧٩) .

وفي هدي ما ذكرناه ، نعتبر ابراهيم بن أدهم ظاهرة فذة في مجال التصوف الاسلامي، وإماماً للمتصوفين الروحيين المسلمين الذين مهدوا لظهور الصوفية الاسلامية ومبادئها الروحية والفلسفية .

هذا ، ولا بد لنا ، قبل أن نختتم هذا الحديث من أن ننوه بأن بعض المستشرقين والباحثين العرب الذين اهتموا بدراسة الصوفية قد ذهبوا ، فيما ذهبوا اليه ، الى أمرين :

أولهما : ان قصة تزهد ابراهيم بن أدهم ليست الا تكراراً لقصة (بوذا) الهندي في التزهد(٨٠) .

وثانيهما : أن ابراهيم قد تأثر في تزهده، بتعاليم البوذية التي كانت لها صوامع مزدهرة في مدينة بلخ ـ وأن الصوفية الاسلامية ، بوجه عام ، مدينة بالكثير الى أصول هندية(٨١) .

وكان بودنا ان نناقش هذه الآراء ؛ لكن سمة هذا المقال وحجمه ، لا تسمحان لنا بالخوض في مثل هذا الموضوع .

☐ كرامات ابراهيم :

ان ما ورد في بطون الكتب من روايات وحكايات عن كراماته لغزير جداً .. وفي رأينا أنه قد شاب معظم هذه الروايات والحكايات غلو كبير يدخلها في نطاق الإعجاز ، مما لم يصح



الا للرسل والأنبياء ؛ واختلط بعضها بروايات مشابهة لهـا نسبت الى غير ابراهيم • ولسنا هنا في حال تتيح لنا أمر معالجة ومناقشة هذا الموضوع ، بيد أننا نقول ، حول الكرامات ، ان كثيراً من ذوي الأخلاق الفاضلة والورع والتقى، او المخلصين في المحبة كالوالدين مثلا ، ممن لم يبلغوا درجـة ابراهيم مـن التجرد والفناء في المحبة ، قـد صفت أذهانهم ونفوسهم فأوتوا حدساً صائباً ورؤية صادقة في كثير من نواحي الحيـاة ، فكيف بابراهيم ، وهو مـن وصفنا وعلمنا، من قهر النفس والتجرد المطلق عن المادة، والسمو بالروح الى الله والخلوص له والفنـاء فيه ؟ فلا شك أنه يتجاوز ، بصفائه ونقـائه ، حدود عالم المحدسات الى ما وراءه فيرى كثيراً من حقائق هذا الكون وأسرار الحيـاة •

□ ■ □

الحـواشـي :

١ ـ ابن عسـاكر ١ : ٩٨ و ١٠٠ ، ابن خلكـان ١ : ٣١ ، البداية والنهاية ١٠ : ١٣٥ •
٢ ـ ابن عساكر ١ : ١٠١ ، العبر ٢٣٨ •
٣ ـ ابن عساكر ١ : ١٠١ •
★ في رواية حلية الأولياء : ابوه هو الذي جعل يطـوف به ويدعو •
٤ ـ حلية الأولياء ٧ : ٣٧١ ، ابن عساكر : ١ : ١٠٠ •
٥ ـ ابن عساكر : ١ : ١٠١ •
٦ ـ ابن بطوطة ، ١ : ٤٦ •
٧ ـ للوقوف على مختلف هذه الروايات يمكن الرجوع الـى المصادر التالية : طبقات الصوفية للسلمي : ١٤ ـ ١٥ ، حلية الأولياء : ٧ : ٣٦٨ ـ ٣٦٩ ، ابن عساكر ١ : ١٠١ و ١٠٢ و ١٠٣ ، تهذيب ابن عساكر ٢ : ١٦٨ ـ ١٧٢ ، البداية والنهاية ١٠ : ١٣٥ و ١٣٦ ، شذرات الذهب ١ : ٢٥٥ ـ ٢٥٦ •
٨ ـ الرسالة القشيرية ٩ ـ ١٠ ، ابن عساكر ١ : ١٠٩ و ١١٠، وشذرات الذهب ١ : ٢٠٥ البداية والنهاية : ١٠ : ١٣٥ و ١٣٦ ـ طبقات الصوفية ١٤ ـ ١٥ ـ سير النبلاء ٧ •
٩ ـ ابن عساكر ١ : ١١٠ ، البداية والنهاية ١٠ : ١٣٦ ـ حلية الأولياء ٧ : ٣٦٩ •
١٠ـ ابن خلكان : ١ : ٣٢ •
١١ـ ابن عسـاكـر ١ : ١٤٩ ، الأعـلاق الخطـيرة : ٥٩ ، ابن الأثير ٦ : ٥٤ ، آثار البلاد وأخبار العباد : ٣٣٢ •
١٢ـ ابن عساكر ١ : ١٤٩ ، شـذرات الـذهب ١ : ٢٥٥ ، الكواكب الدرية ١ : ٧٨ ، العبر : ١ : ٢٣٨ مرآة الجنان ١ : ٢٤٨ ، البداية والنهاية : ١٠ : ١٤٥ •
١٣ـ ابن عساكر : ١ : ١٤٩ •
١٤ـ ابن عساكر ١ : ١٤٩ ، معجم البلدان ٤ : ١٧٨ •
١٥ـ الرسالة القشيرية : ١٣ ، وفيات الأعيـان ١ : ٣٢ ، شذرات الذهب ١ : ٢٥٦ الكواكب الدرية ١ : ٧٨ •
١٦ـ شذرات الذهب ١ : ٢٥٦ ، حلية الأولياء ٨ : ٩ •
١٧ـ ابن عساكر : ١ : ١٤٩ ـ ١٥٠ •
١٨ـ هو محمد بن كناسة ـ وابن كناسة ابوه هو عبد بن عبد الأعلى ـ ويكن ابا يحيى شاعر مجيد من شعراء الدولة العباسية ، ولد بالكوفة ونشأ فيها ، وقد نقل عنه بعض الحديث ـ وكان رجلاء صالحا فاضلا ، لا يتصدى في شعره لمدح ولا لهجاء • توفي سنة ٢٠٧ هـ (٨٢٢ م) •
★★ تزمزم الجمل هدر • وربما كان الأصل ترمرم ، وفي التاج ما ترمرم فلان بحرف اي ما نطق •
١٩ـ الأغاني : ١٢ : ١١٥ •
٢٠ـ يرجع الى البحث الخاص بجامع ابراهيم في هذا الكتاب •
٢١ـ صبح الأعشى : ١٢ : ٤٨٢ •
٢٢ـ ابن بطوطة : ١ : ٤٧ •
٢٣ـ كتب في هذا الأستاذ عبد السلام الزين فأجاب متفضلا : انه ليس في صور قبر او جامع له ، وان اهالي صور لم يسمعوا بهذا ممن سبقهم ، وانما قرؤوه في الكتـب كمـا قراه غيرهم من الناس •
٢٤ـ الأعلاق الخطيرة : ج ١ قسم ١ ص ٥٩ •
٢٥ـ تقويم البلدان : ٢٥٥ •
٢٦ـ ابن بطوطة : ١ : ٤٦ •
٢٧ـ زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك : ٤٨ •

٢٨- ابن عساكر : ١ : ١٠٥ ، البداية والنهاية ١٠ : ١٣٧ ، سير النبلاء ٧ .

٢٩- ابن عساكر : ١ : ٩٩ .

٣٠- ابن عساكر : ١ : ١٢٣ ، البداية والنهاية ١٠ : ١٣٩ ، حلية الأولياء ٨ : ٢٨ .

٣١- ابن عساكر : ١ : ١٠٥ ، الكواكب الدرية ١ : ٧٨ العبر ١ : ٢٣٨ ، البداية والنهاية ١٠ : ١٤٥ .

٣٢- الكواكب الدرية : ١ : ٧٨ ، ابن عساكر وتهذيب ابن عساكر ٢ : ١٦٧ - ١٦٨ .

٣٣- ابن عساكر : ١ : ١٠٧ ، والبداية والنهاية ١٠ : ١٣٧ .

٣٤- حلية الأولياء ٨ : ٣٣ .

٣٥- ابن عساكر : ١ : ١٢٥ ، البداية والنهاية ١٠ : ١٣٩ .

٣٦- الأغاني : ١٢ : ١١٥ .

٣٧- طبقات الشعراني : ٥٩ .

٣٨- ابن عساكر ١ : ١٢٧ ، الكواكب الدرية ٧٦ ، حلية الأولياء ٨ : ٣١ .

٣٩- ابن عساكر : ١ : ١٠٧ .

٤٠- حلية الأولياء : ٧ : ٣٩٠ .

٤١- حلية الأولياء : ٧ : ٣٧٣ ، ابن عساكر ١ : ١٢٦ .

٤٢- ابن عساكر : ١ : ١٢٣ ، حلية الأولياء ٧ : ٣٧٣ .

٤٣- حلية الأولياء : ٧ : ٣٧٠ ، ابن عساكر ١ : ١٤٤ - ١٤٥ ، الرسالة القشيرية ١٠ .

٤٤- حلية الأولياء : ٧ : ٣٧٠ ، الرسالة القشيرية ١٠ ، ابن عساكر ١ : ١٤٤ .

٤٥- ابن عساكر : ١ : ١١٨ .

٤٦- ابن عساكر : ١ : ١١٩ ، البداية والنهاية ١٠ : ١٣٨ .

٤٧- ابن عساكر : ١ : ١٢١ .

٤٨- حلية الأولياء : ٧ : ٣٩٠ ، ابن عساكر ١ : ١٢٠ .

٤٩- حلية الأولياء : ٧ : ٣٨٩ ، الكواكب الدرية ١ : ١٧٥ .

٥٠- حلية الأولياء :٧ : ٣٨٢ ، ابن عساكر : ١ : ١٢١ .

٥١- الأمان : هو ، في عرف الحصادين والمزارعين ، حصة كل حصاد من الأرض التي يشارك غيره في حصادها بعد قسمتها بالتساوي بينهم - ولا تزال هذه التسمية مستعملة اليوم في الساحل .

٥٢- حلية الأولياء : ٧ : ٣٧٨ .

٥٣- حلية الأولياء : ٨ : ١٠ .

٥٤- ابن عساكر ١ : ١٠٥ ، الكواكب الدرية ١ : ٧٦ .

٥٥- حلية الأولياء : ٧ : ٣٨٠ .

٥٦- سورة البقرة الآية ٢٤٤ .

٥٧- سورة آل عمران الآية ١٦٩ .

٥٨- حلية الأولياء ٧ : ٣٨٨ .

٥٩- ابن عساكر ١ : ١٤٩ ، ابن خلكان ١ : ٣٢ ، البداية والنهاية ١٠ : ١٤٤ - ١٤٥ .

٦٠- ابن عساكر : ١٣٩ ، و ١٤٤ - طبقات الصوفية ٢١ .

٦١- حلية الأولياء : ٧ : ٣٨٠ .

٦٢- ابن عساكر ١ : ١٢٠ .

٦٣- حلية الأولياء : ٧ : ٣٨٧ ، ابن عساكر ١ : ١٠٥ .

٦٤- ابن عساكر ١ : ١٠٦ .

٦٥- حلية الأولياء : ٨ : ١٤ .

٦٦- ابن عساكر ١ : ١٢٥ - ١٢٦ .

٦٧- حلية الأولياء : ٧ : ٣٨١ .

٦٨- ابن عساكر : ١ : ١٤٤ .

٦٩- حلية الأولياء ٨ :١٣ .

٧٠- حلية الأولياء : ٧ : ٨٨ ٣ ، ابن عساكر ١ : ١١٥ .

٧١- حلية الأولياء : ٣٧ ٣٧ ، ابن عساكر ١ : ١٢٥ و ١٢٦ .

٧٢- الكواكب الدرية : ١ : ٧٤ .

٧٣- حلية الأولياء : ٧ : ٣٧٤ و ٣٨١ ، الطبقات الكبرى : ٥٩ ، ابن عساكر ١ : ١١٤ و ١١٥ .

٧٤- حلية الأولياء : ٨ : ١١ .

٧٥- حلية الأولياء : ٨ : ٣١ ، ابن عساكر ١ : ١٠٠ ، الكواكب الدرية ٧٧٠١ .

٧٦- حلية الأولياء : ٧ : ٣٧٨ .

٧٧- حلية الأولياء : ٨ : ٣٤ و ٣٥ .

٧٨- الكواكب الدرية : ١ : ٧٧ .

٧٩- حلية الأولياء : ٨ : ٣٤ .

٨٠- العقيدة والشريعة في الاسلام : ١٤٣ ، والصوفية في الاسلام ٢٢ .

٨١- الصوفية في الاسلام ٢٢ ، ذكرى أبي العلاء ٩٢ .